

المحاضرة الثالثة: مدارس علم النفس – البنيوية Le structuralisme

ينحدر التيار البنيوي من المدرسة الإمبريقية l'école empiriste (الحصول على المعلومة إنطلاقاً من الواقع) ومدرسة تداعي الأفكار associationniste (تفسير العمليات الفكرية عن طريق تداعي الأفكار) الإنجليزية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو يفترض أن كل تجربة عقلية مركبة من مكونات أولية، فالهدف من المقاربة البنيوية متمثل في الكشف عن البنية التحتية للفكر البشري من خلال تحليل عناصر الإحساس التي تشكل أساس المعارف البسيكولوجية للفرد.

ظهرت فكرة التجريب على ميكانيزمات الفكر l'esprit مع أعمال جوستاف تيودور فيشنر Gustave Theodor Fechner (1801-1887) حول البسيكو-فيزياء والتي عرضها في كتابه الشهير عناصر علم النفس الفيزياء Elemente der Psychophysik (1860). وفي سنة 1862، إقترح ماكس ولهيلم فونت Max Wilhelm Wundt (1832-1920) تأسيس علم جديد سماه علم النفس التجريبي ليخلق بذلك مكاناً لعلم النفس بين العلوم الإنسانية.

بما أن السيرورات النفسية معقدة، بين فونت أنه يقصد بـ "العناصر النفسية" مكونات السيرورات النفسية التي لا يمكن تجزئتها والتي تنقسم إلى قسمين:

- الإحساسات les sensations (عناصر الإحساس): المرتبطة بالموضوع مباشرة.
- المشاعر les sentiments (عناصر العاطفة) والمرتبطة بالشخص مباشرة.

ويشترك هذين المكونين في محددين هما: النوعية والشدة، أي أن للإحساسات والمشاعر طابع نوعي معين يتنوع من حيث الشدة.

من أجل أن يتمكن من الولوج إلى الوظائف الفكرية العليا ويحللها، اعتمد فونت على "أنثروبولوجيا بسيكولوجية une anthropologie psychologique" أو "علم النفس الشعوب une psychologie des peuples" ليشغل عليها طوال حياته.

لما التحق فونت بـ فيشنر في جامعة لايبزيغ Leipzig في شتاء 1875 ليشغل كرسي الفلسفة، كان ينوي تطوير علم النفس على المستوى الأكاديمي، لذلك شكل تأسيسه لمخبر علم النفس التجريبي في سنة 1879 أو خطوة لمأسسة هذا العلم، كما نشر في سنة 1881 أول كراسة لمجلة موجهة لتطوير الفكر الفلسفي سماها "دراسات فلسفية" وقد كانت وسيلته لنشر الأعمال التجريبية لهذا المخبر.

تكون في هذا المخبر الممثل الأمريكي البارز للبنىوية في علم النفس إدوارد برادفورد تيتشنر **Edward Bradford Titchener** (1867-1927) الذي نقل فيما بعد عقيدة صارمة للبنىوية الراديكالية لمدرسة لايبزيغ إلى الولايات المتحدة، حيث أشار بقوة إلى ضرورة إستعمال الطرائق العلمية لدراسة الوعي la conscience، ولكن قرر في نفس الوقت الإستعانة بطريقة جديدة لدراسة عناصر الجهاز النفسي الواعي سماها: الإستبطان التجريبي l'introspection expérimentale، وهي طريقة يقوم فيها الأفراد بمراقبة أفكارهم ومشاعرهم خلال التجارب الحسية les expériences sensorielles. وهكذا اهتم تيتشنر ببنية المحتوى العقلي وترك في الظل دراسة عمل الفكر، فمقارنته معروفة بـ البنىوية le structuralisme وهي مدرسة فكرية تهتم بدراسة بنية الفكر والسلوك.

يكمن الهدف الرئيسي للنفساني التجريبي حسب تيتشنر في تحليل بنية الفكر واستخراج السيورورات الأولية للوعي، فبالنسبة لهذا العالم توجد سيورورتان أساسيتان هما: الإحساسات les sensations والعواطف les affections، وتنقسم الإحساسات بدورها إلى الإحساسات الفعلية و "الفكرة أو الصورة".

بما أن بنية الفكر مرهونة بالتنظيم الفيزيقي، فإن كل عنصر نفسي يملك محددين ضروريين هما: النوعية la qualité والشدة L'intensité، بحيث تكون النوعية خاصة وفردية، في حين تعتبر الشدة خاصية مشتركة بين كل الكيفيات الحسية وكل الأنواع العاطفية les qualités affectives.

يتكون العنصر العاطفي l'élément affectif من النوعية la qualité، الشدة والمدة la durée أما العنصر الحاسي (الإحساس أو الفكرة) فيتكون من النوعية، الشدة، المدة، الوضوح la clarté، والإتساع l'étendue في بعض الحالات.

فضل فونت التجريب في علم النفس الفردي لسيورورات الفرد وعارض الإستبطان التجريبي التي استعمله تيتشنر واعتبره عودة للميتافيزيقا. أما على المستوى النظري فيعتبر علم النفس الخاص بـ فونت تفسيري يتجاوز المرحلة الوصفية على عكس تيتشنر.

على عكس فونت، إعتقد تيتشنر بأنه لكل معرفة la connaissance أصلها في الإحساسات الأولية التي يرى أن لها أربعة خصائص هي: النوعية والشدة (التي قبل بها فونت أيضا) الوضوح والمدة (التي لم يقبل بها فونت)، فبالنسبة لـ تيتشنر المفهوم الوحيد المهم في علم النفس الخاص بـ فونت هو مفهوم الإحساسات أما بقية المفاهيم مثل "اللاإدراك (l'aperception) فتبقى حسب مفاهيمها واسعة لا يحتاجها علم النفس.

أما على مستوى فلسفة علم النفس، فقد رأى فونت على عكس تيتشنر بأن علم النفس بحاجة لأن يتضمن بالإضافة إلى علم النفس التجريبي للفرد للدراسة المباشرة للظواهر العقلية الخارجية البسيطة، علم النفس الاجتماعي للجماعة la socio-psychologie du groupe (Völkerpsychologie) للدراسة غير المباشرة ولكن الموضوعية للظواهر العقلية الداخلية للفكر l'esprit (السيرورات المعرفية المعقدة)، لكن تيتشنر تجاهل هذه الأفكار بالرغم من تعوده على نقد علم النفس التجريبي الموسع لـ فونت.

توفي تيتشنر سنة 1927 في نيويورك عن عمر يناهز 60 سنة وانطفت معه شمع المدرسة البنيوية في علم النفس.

المراجع:

- Nicolas, S. Ferrand, L. **Les grands courants de la psychologie modernes et contemporaine**, histoire documentaire des systèmes et écoles de psychologie, de Boeck, Belgique, 2009.